محاولات في درس جبران

الجوهر الفرد

في ادب جبران خليل جبران

بقلم امين خالد

١

توطئة

> ان رأيت شاعرًا من الشعراء، او عالمًا من العلماء، او نبيلًا في قومه، او داعيًا في امته، قد انقسم الناس في النظر اليه وفي تقدير منزلته انقسامًا عظيمًا، فالتفّ بحبه قوم حتى رفعوه الى رتبة الملك، ودان ببغضه آخرون حتى هبطوا به الى منزلة الشيطان، فاعلم انه رجل عظيم.
>
> المنفلوطي

هذا هو راي الاديب المنفلوطي في آية العظمة. واذا نظرنا الى جبران بهذا الاعتبار كان رجلًا على شيء من ذلك بسبب ما ناله من شهرة واسعة. وحريّ بنا ان نتأمل مليًا سر هذه الشهرة، ونعرضها بتروٍ على محك النقد النزيه لتجلو منها الجوهر الفرد، ونعرف قيمة جبران الحقيقية.

اجل، لقد قيل عن جبران انه «الفيلسوف الانساني الكامل» وقيل انه «من اعداء الانسانية» «وانه يكتب ليفسد اخلاق الناشئة». فغالى محبوه باستعمال الالفاظ الطنّانة ونسبوا اليه ما لم يدر في خلده البتة؛ واغرق بالنقمة عليه غيرهم، فاضاعوا كرامته وانكروا مواهبه.

ولكن ايليق بالنابغ ان يحلّه عشّاق مبدأه مكانًا اسمى ممّا تؤهله اليه فضيلته، ام هل يسلّم الوجدان الحي بجحود مزايا الكتاب الحقيقية؟!

كلا! لا هذا ولا ذاك! انّما الحق في ان نفهم عبقرية الرجل القائمة

بالادب الذي ظهرت من خلاله روحه ، ونخصّ العناصر التي تألف منها ذلك الادب ، والاتجاهات التي تميل نحوها تلك الروح .

ولئن ادركنا بدرسنا هـذا الكنه الذي قضى الاديب حياته مجتهداً في التعبير عنـه بمختلف الاساليب ، او اشعرنا بالعواطف التي كانت تتلجلج في احشائه ويعتني بتصويرها بابلغ ما اوتي من مواهب الفصاحة والبيان ، كان ذلك ابقى له ولتابعيـه الذين يؤلمهم ان تمسخ صورة المعلّم دهشةُ المعجب او غايةُ الخصم ، واحفظ لجوهر النبوغ الذي يعتقد ابناؤه ان اسرار قلوبهم وادمغتهم لن تذهب ادراج الرياح بل يكون لها صدى تنتقده الاجيال وتدرسه الناشئة بامعان وتقدير .

عناصر التأثير في شخصية جبران

نشأ جبران باواخر القرن المنصرم في احضان احدى العائلات المتوسطة التي كانت نفوس افرادهـا الطموحة تحملهم على هجر لبنان الى بلاد الذهب ، بصدور مملوءة نشاطاً وهمة ، واذهانٍ وقّادة تنظر الى ما وراء حجب المستقبل ، فتمتلئ الآراء الجـديدة ويقوّيها الاحتكاك الاجتماعي في سبيل التدرج لتقليد مظاهر الحياة في بلاد الخير التي كانوا يعودون منها مغبوطين بتوفيقهم ، معجبين بمعجزات التقدم والاختراعات الحديثة ومبادئ الحرّية . ويرجعون الى قراهم في لبنان ، ويرون انفسهم قد امتازوا عن بقيّة اهـل الضيعة ، فيأخذون بالتبشير بما جاؤا به من الجديد في العادات والاخلاق ، ويصيرون بهذا وسل التأثير في تغيير التقاليد العتيقة ، واتخاذ الجديد ديدناً معشوقاً بكل ما فيه من الزهو والروعة .

ولعمري ا اذا كانت البعثات الاجنبية التي حملت الى لبنان في القرن التاسع عشر مصابيح العلم الحديث والقت رحالها في بيروت ، دماغ الشرق ، قد فتحت عقول الذين تهافتوا على موائدها ، وهيأتها للانتقال من ظلمة الجهل والبداوة الى نور المنطق العصري ودرس الاكتشافات ، واخذت تحـلّ الجمود العقلي بزيت

التفكير والنقد ؛ فان هذا رغم تبريز الفئة التي حملت مشعل النهضة المصرية وسارت به الى مصر ومن ثم انتشرت في سائر انحاء الشرق الادنى ، ان هذا التنوُّر لم يظهر تأثيره في الاخلاق والعادات بشكل محسوس . فاليازجيون وبستانيو دائرة المعارف واكثر الادباء بذلك الوقت ظلوا يرتدون السراويل الواسعة جدًّا ، والزنانير المحبوكة ، والصدرية القباني ذات الازرار المدعلة ، والطربوش الاستانبولي القير المقشش ، وكستك الساعة الحريري الاسود الطويل المعلق في العنق والمتدلي حتى الزنار حيث الجيب المدوَّر الصغير الذي طرَّزته انامل المخدَّرات ذوات الملاءة البيضاء ؛ ويأكلون على الطبق ؛ ويدخنون النليون الذي يحرقونه بالقدَّاحة والصوفانة ؛ اي انهم ظلوا شرقيين محافظين في اخلاقهم وعاداتهم . ذلك لانهم نشأوا وترعرعوا في المحيط اللبناني القديم وفي احضان آبائهم الشيوخ الذين لم يعرفوا ما عرفه جبران الفتى من اخوانه الذين تقدَّموه بالهجرة الى ما وراء البحار وما اكتسبه من العادات والفه من الاخلاق الغربية ، بعد ما بارح لبنان وهو في العقد الثاني من العمر ، وعجينة اخلاقه اللينة مستعدة لقبول كل ما يرتسم عليها من الطباع المكتسبة .

والى اين توجَّه جبران تاركاً قصبة بشري ووادي قاديشا ؟

الى مصر ، فباريس ، فبوسطن . ولكن لا ليمكث فيها ردحاً من الزمن ينسيه لبنان وما في لبنان من العذوبة والجمال ، بل ليعود الى لبنان فيودِّع القرن التاسع عشر فيه باقامته اربع سنوات كانت آخر مدةٍ قضاها في بيروت ، اذ تلقى دروساً سطحيَّة بالنسبة لمبلغ العلم الذي يحصِّله الشبَّان في الجامعات الكبرى . وهكذا لم يتسنَّ لجبران التعمق في درس مادةٍ ما علمية ولا اجتماعية ، بل ان جلَّ ما اكتسبه علق بفطرته واستعداده الحسن في اتجاه اخلاق عائلته ، والمحيط الذي كان مجذوباً نحوه ، والبصيص الادبي الذي اخذه من مدرسة الحكمة الوطنية حيث تلقى دروسه العربية . ولذلك من العبث ان ننتظر من جبران ان يصدر لنا آراء راهنة مبنيَّة على حقائق علميَّة مدقق بها . وبالعكس فان ما صقل ذوقه وشحذ شعوره بسياحته في اثينة وفلورنسة والبندقية وباريس واميركة ساعده على اصدار انجرةٍ حارَّة من قدرة العواطف والاحساس .

ولكن ما هو حجر المسنّ الذي شُحِذَ عليه شعور جبران القوي ؟

أكان رغبته في الذهب الذي كانوا يطمعون به في اميركة بذاك الحين ام غيره من ميول الانسان للاكتشاف او الشهرة او التقوى ؟

او ماذا ننتظر من جبران — وهو في شرخ الشباب — ان يبهره في الغرب وتهوله رؤية ضده في الشرق فيهيج ذلك بفؤاده ويرغي ويزبد شراباً سكبه « بالاجنحة المتكسرة » و « عرائس المروج » و « العواصف » و « الارواح المتمردة » وابقى طعمه حتى في آخر ما انتجت قريحته ؛ في « البدائع والطرائف » و « رمل وزبد » و « والسابق » وكتاب البشارة الجبرانيّة الذهبي ، « النبي » ، حيث يحسب الكثيرون ان فيما كتبه جبران بعهد الكهولة تطوّرًا او تغيرًا ، مع ان الجوهر الجبراني واحد ، وان اختلفت الصيغ الفنيّة التي ظهر بها ذلك الجوهر لمّاعاً جذّاباً فافتتنت به قلوب الشباب على الاطلاق ، ولم تنجُ من تأثيره عواطف الشيوخ ، وجُنّت به الفتيات . فجلس جبران على عرش الافئدة التي اهلها احتكاك الشرق بالعالم الغربي لتلقي ادب الشاب الذي بزغ نبوغه في فجر هذا الاحتكاك ، وشمشع بسمائه حتى الضحى .

اجل ! لم يبهر جبران في العالم الغربي الّا ما يبهر كل بشري لو كان مكان جبران . فالشيخ الذي جاوز حدّ الاربعين لو جاء اليوم من ضيعة تبعد مائة كاومتر عن بيروت ، وقضى بها بضعة ايام لقضاء مصالحه الخاصة ، يعود الى بلده فيحدّث اهله وذويه قليلًا ، وقليلًا جدًا ، عن البنايات الشاهقة والقناطر الفخمة والسيارات المفتخرة والاطعمة اللذيذة او الكهربا ؛ ويحدثهم كثيرًا عن الاثواب الشفّافة والصدور العارية والشفاه الحمراء والزنود الغضّة والشعر المقصوص المكوّى . وسائر الازياء والمظاهر التي تأسر القلب والمشاعر لدولة الجسم الناعم اللطيف .

نعم ! يبهر الشيخ الذي جاوز حدّ الاربعين في الكلام عن كل هذه البهرجات النسويّة ، حتى امام بناته العذارى ، لانه لا يتالك عن الحديث لشدة تأثره بكل ما تقدم . قد يذكر الشيخ كل هذا مشفوعاً بعبارات النقمة على الخلاعة واهلها ، ولكنه لا يستطيع اخفاء تأثره ؛ بل يحدّث ويتكلّم ويحكي

بجودة خاطر وطيب لسان .

اذا كان هذا شأن الشيخ المنتقل من قريته في الجبل الى بيروت اليوم ، فاذا يتصوّر المفكر من حال جبران ، وهو الشاب الجميل المراهق الذي حملته الاقدار الى باريس في اول القرن الحاضر ، لا ليقيم فيها بضعة ايام فحسب ، بل ليمكث هناك شهوراً طوالاً ؛ ولا لانجاز مصلحةٍ مادية ، بل لدرس الفنّ وسرّ الجمال .

لقد كان من الطبيعي المتحتم ان تختمر في قلب جبران الفتى العاطفة البشريّة الرئيسيّة اى عاطفة الحب — وايُّ حب ! — وان يكون في ذلك الحب قوّة شديدة غير مقتصرة على الانبثاق المادي من فؤاد الشاب ، بل طفرة فائرة تدفع للنهش والالتهام .

كيف لا وقد صادف بالمحيط الغربي جوّاً خارجياً يدفع بهذا الحب الى التمتع الحر المطلق والتلذذ الهيّن المباح .

وقد رأينا انه ترعرع معه في اسرته استعداد لتلقي مبادئ التمدين الحديث والاخلاق الغربيّة .

الحب الجبراني

نعم ! دهش جبران بجسد المرأة الجذّاب وفرح بحريتها في الغرب وحريّة الرجال تجاهها ؛ واختمر بحبها قلبه الشرقي المخلص ، المتعطش الى اللذّة ؛ وعاد الى بيروت ليحبّ فتاة جعلها بعدئذٍ بطلة « الاجنحة المتكسرة » ، وسرد بهذه الرواية البليغة كل ما توقع له مع تلك الفتاة التي دعاها سلمى كرامه .

في « الاجنحة المتكسرة » بسط جبران كل ما اضمره وجدلته من غايات الحب العميق . ولكن جبران كان خاسراً في صفقته ، لان سلمى كرامه تزوجت زواجاً شرعياً بغيره . فولّد عنده هذا النقص في حظه تاماً نحو الفن ليبثّ العالم مكنونات قلبه الجريح ، ولينفث من بركان عاطفته المتجسّمة قذائف النقمة على العقبات الكؤود التي اعترضته في سبيل حبه . ودعائم هذه العقبات

جدران العادات والاخلاق، وحصن الدين والشريعة . ففي سبيل الحب، ولتهديم الاخلاق والعادات الشرقية ، ، ونسف اركان الدين ، وتحطيم قيود الشريعة ، وقفَ جبران فنه الكتابي .

نعم ان حب المرأة هو الذي اوحى الى جبران آيات فنه ، والهمه اسلوبه البديع .

ولكن ما هو الحب الجبراني ؟ وما هو ذلك الفنّ اللذان كانا لعظمة جبران السدى واللحمة ؟ !!

الحب رافق الانسانية منذ البدء ، وسيبقى محور آدابها حتى النهاية . ولكن انواع الحب تختلف بحسب الادوار التاريخية ، ودرجاته تتباين بحسب الشخصيات الادبية .

فمنهم من تغنى بزوامير الحب المجرَّد عن كل دنس ، وقد دعوه بالافلاطوني لانه يقتصر على الافتكار والتأمل بشخص الحبيب والمحافظة على كيانه المعنوي بل والجهاد في سبيل طهره وقداسته واسعاده ؛ وعمدة هذا الحب التضحية التامة : وهو موجود في نظريات بعض الفلاسفة ، لانه المثل الأعلى .

ومنهم من اكتفى بوصف التشوّق لمشاركة الحبيب بالفكر والعاطفة المتبادلة والعمل في سبيل الحياة . واساس هذا الحب العدل وغايته غريزة احياء الجنس .

ومنهم من وسّع فكرة الحب الجسدي القاتل الذي يودّ صاحبه لو استعبد كلّ ما بالعالم لاشباع شهوته الشخصية من حبيبه . ومصدر هذا الحب الانانية الحرّة المجرّدة ، وغايته اللذة المطلقة .

فالى ايّ هذه الانواع اتجهت عواطف جبران التي نمت في باريس ، بلدة الجمال وكعبة المرأة العصرية ؟

واي حبّ نضج في ريعان صباه واثمر للغته العربية فاكهة قيّمة ، اذ شرح بمؤلفاته ما يسميه «ذاته الوضيّة» بصدق في القول ، وامانة بالوصف والتصوير . فكان امام المجدّدين بهذا الاسلوب في الادب العربي ، واعطى المثل الاول للشاعر الذي يعمل على احياء اللغة حسب رأيه السديد بقاله «مستقبل اللغة

العربية». فلم يكن مرآة مدهونة تعكس ما سطع عليها من اشعة المتقدمين في خطة تقليدية، بل كان كاساً نقية يتلألأ ما فيها من ماء الحياة المعنوية.

ولنسمع جبران يحلل نفسيته الخاصة ويعبّر عن رأيه في الحب والحياة:

قال في توطئة «الاجنحة المتكسرة»: «سلمى كرامه هي حواء هذا القلب المملو بالاسرار والعجائب، وهي التي افهمته كنه هذا الوجود، واوقفته كالمرآة امام هذه الاشباح... حوّاء الاولى اخرجت آدم من الفردوس بارادتها وانقياده، اما سلمى كرامه فادخلتني الى جنة الحب والطهر بحلاوتها واستعدادي.»[1]

سلمى كرامه حبية جبران، ليست فكرة فلسفية عن الجمال بوجه الاجمال، او مثلاً لكل فضيلة واهلاً لكل تضحية؛ ولا بدراً في تكوين وجهها او خيزرانة في لين قوامها، او شيئاً مما تغزّل به الشعراء الذين شاقهم الاقتران بامرأة احبوها وحالت الاقدار دون وصالها. بل هي «حوّاء» اي امرأة عارية الجسد لديها تفاحة للاكل. وقد صوّرتها ريشة جبران بسائر الرسوم التي مثّلها بها، فكانت تحفة من تحف الرياضة البدنية في معارضه الساذجة الصيت في بلاد «التنس»؛ وبطاقة تخجل الفتاة الشرقية من النظر اليها.

اجل! حبية القلب الجبراني امرأة عارية معتوقة من كل ستر حاكته يد التاريخ المدني، او خيط غزلته الاخلاق والقوانين لتلفّ به عرض المرأة ضناً بالنسل والارث والامن العام.

وهذه المرأة العارية هل هي حواء العقل الباحث عن كيانها، المدقق في حقوقها والعلاقات الحيوية معها؟؟

كلا! بل هي «حوّاء هذا القلب» اي حوّاء الميل والشهوة العمياء المبهمة المتراثية «كالاسرار والعجائب» لشدة اطباقها وبعد غورها في اعماق جبران، او كما كان يقول «في قدس اقداس النفس».

ولهذه المرأة سرٌ عجيب. فهي توحي الى القلب الهاماً «يفهم كنه هذا الوجود». فكل ما ولّدته المرأة في القلب من العواطف هو عقيدة الحق بالكائنات، بل هو المعرفة التامة.

---

١) الاجنحة المتكسرة – نيويورك ١٩١٢ – ص: ٢-٣

اذن فلسفة جبران عاطفية قلبية نموّية . وكل ما روّي بغير مجهر القلب ، وليس من خلال المرأة العارية ، فهو « اشباح » لا قيمة للتدقيق في شؤونها : فالمقاييس والاوزان والعلوم الرياضيـة والتجريبيـة والمنطق الاجتماعي والحقائق العقلية والسياسة وكل ما بالكون مخيف راعب « كالاشباح » لا يأبه جبران للتقرّب صوبها ، بل يهزأ بها ساخرًا ، ولطالما دعاها « بالالغاز والاحاجي ».

ولماذا كل هذا التحكيم والاستـلام لسلطـان العواطف ؟ ومن اين اتت هذه الحكمة بل هذه النبوءة الجبرانية ؟

من تأثير حوّاء القلب الجبراني ! وايّ تأثير ؟ هل كان ذلـك تأثير المنظار الخارجي واللمحات الشعرية التي تبهر ابصار المحبين وتخلب بصائرهم ؟ ام كان وقع صوت الحبيب الذي تدوي في اذن العاشق رنّته السحرية ؟ ام كان رائحة انس يسكر بها الصب ؟ ام نعومة لمس ترتعش لها الاعصاب ؟

كلا ! لم يكن شيء من هذه الحواس البتّة !

بل هي « حلاوة » اي لذة فائقة بطيب طعمها .

اجل ! جبران ينادي بحلاوة حوّاء العارية ولذة طعمها . وما هذا سوى الشهوة الجسدية المتجسّمة عند من اوجدت في احشائه تربيته بين ذوات الصدور والزنود العارية استعدادًا يجاهر به على رؤوس الاشهـاد ، ويصرّح بان الجنّة قائمة بهذا الحب وهذه التفاحة الشهية .

« الجنة ! » : كلمة صغيرة لشيء كبير ! !

« الجنة ! » : هي اللفظة التي اعتاد البشر ان يعبّروا بها عن منتهى الغبطة الابديّة والسعادة السرمدية ؛ هذه « الجنة »، في عقيدة جبران، قد ادخلته اليها « حوّاء قلبه بحلاوتها واستعداده » اي سلمى العارية بلذّتها هي وشهوته هو .

وهنا لا ينفصل جبران عن نظريّة الاديان السماوية والاخلاق الاجتماعيـة انفصالًا فرعيًا فحسب ؛ بل هو يعكس آياتها عكسًا اساسيًا واضحًا كالشمس في رائعة النهار .

التعاليم الـدينية تعتبر المرأة خاطئة ، وتقول ان الرجـل الاول طُرد من الفردوس الطاهر ، ونفي الى هذا العالم عندما اكل من تفاحة حوّاء . واما جبران

فيرى ان الجنّة – اي الهناء الابـدي – ليس في الحب المقدّس فقط ! بل في الحب المجرم ، وفي العشق السرّي ، في الفحش ، اذا صدرت ارادة القلب الجـدي بذلك .

جبران هو امام العشّاق المجرمين باسم الميول القلبية والحب . فانه عنـدما حكم القضاء باعطاء سلمى كرامه عهد الزوجية الشرعية الى منصور بك غالب ، لم يقتنع بحبها العذري والمحافظة على العفاف والحشمة والطهارة ، بل تعاهد معها على ان يحبها حتى الموت وان يتلاقيا في محل منفرد . وها هوذا يصف موقفـه تجاهها في الهيكل المجهول القائم «بين تلك البساتين والتلول التي تصل اطراف بيروت باذيال لبنان» في المعبد الصغير الذي حوّلاه الى بيت ملاقاة . «ولم يدر باجتماعاتنا السرّية احد سوى الله واسراب العصافير المتطايرة بين تلك البساتين ، فسلمى كانت تجيء بمركبتها الى المكان المدعو بحديقة الباشا ثم تسير الهوينـا على الممرّات المنفردة حتى تبلغ المعبد الصغير فتدخله مستندةً على مظلتها وعلى وجهها لوائح الامن والطمأنينة ، فتجدني منتظرًا مشتاقاً بكل ما في الشوق من الجوع والعطش . . .»

«ولم تخف قط عين الرقيب ، ولا شعرنا بوخز الضمير . لان النفس اذا تطهرت بالنار واغتسلت بالدموع ترتفع عما يدعوه الناس عيباً وعارًا وتتحرّر من عبوديّة الشرائع والنواميس التي سنتها التقاليـد لعواطف القلب البشري ، وتقف برأس مرفوع امام عروش الالهية . »[1]

(لها بقية)

---

١) الاجنحة المتكسرة ، ص ١١٢–١١٤